

## عندما احتل المسلمون جبال الألب

محمد السمّاك \*

هناك اعتقاد عام بأن المسلمين العرب بعد أن احتلوا إسبانيا في عام 711 وأقاموا دولة الأندلس خسروا معركة بواتيه Poitiers في جبال البيرينيه Pyrenees في عام 732 وأن خسارتهم تلك تعود إلى كونهم "صحراويين" لا يتحملون البرد ولا الطبيعة الجبلية الوعرة بما فيها من غابات ووديان.

وهناك اعتقاد عام أيضاً بأنهم بعد تلك الهزيمة التي لحقت بهم على يد شارل مارتل Charles Martel أنغلقوا على أنفسهم في الأندلس حتى دالت دولتهم بسقوط غرناطة.

هذه الدراسة تحاول أن تقدم وقائع علمية تثبت أن هذه الإعتقادات ليست صحيحة. كما تحاول أن تبين كيف أن المسلمين وصلوا إلى جنوب فرنسا واحتلوا مدناً مثل ليون وغرونوبل. كما وصلوا إلى سويسرا وحاصروا جنيف ولوزان وسيطروا على شمال إيطاليا، وأنهم أقاموا المستوطنات في جبال الألب. وأشرفوا بصورة مباشرة ولمدة قرن تقريباً على الممرات الألبية الاستراتيجية في الغرب وفي الشرق على حد سواء.

وثمة آثار تركها العرب المسلمون في هذه المناطق جرى التعتميم عليها طويلاً، إلا أن العلماء بدأوا التنقيب عنها مؤخراً. ولا يقتصر التنقيب في بقايا القلاع أو حتى الأديرة (التي كانت مساجد) فقط، إنما في بعض العادات والتقاليد، ومنها مثلاً عادة الإمتناع عن تربية الخنازير، وفي أسماء العديد من المواقع التي تقع في عمق جبال الألب والمتداولة حتى اليوم.. وكذلك في أسماء بعض العائلات من السكان الحاليين في بعض الأودية الجبلية.

وتعتمد هذه الدراسة أساساً على بحث أعده البروفسور مانفرد وينر Manfred Wenner أستاذ التاريخ في جامعة اليونز الاميركية ونشرته مجلة دراسات الشرق الأوسط Middle East Study في عددها رقم 12 الصادر عام 1980م تحت عنوان: "الوجود العربي - الإسلامي في وسط أوروبا في العصر الوسيط".

إن الوقائع التاريخية والتي لا يزال بعض آثارها قائماً حتى اليوم تثبت أن ه بعد ثلاثة قرون على معركة بواتيه التي تعتبر بداية نهاية التوسع العربي - الإسلامي في أوروبا، حافظ المسلمون على تواجدهم في عدة مناطق من أوروبا خارج شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال). ومع أن هذا التواجد كان موضع إهمال أو تناس في إطار الصورة الأوسع للعلاقات الإسلامية - المسيحية خلال فترة القرون الوسطى، فقد تبين للباحثين المتخصصين في القرنين التاسع عشر والعشرين أنهم تركوا وراءهم تراثاً أكبر بكثير مما كان يُعتقد من قبل.

ولعل أكثر مواقع التواجد إثارة للاهتمام تلك التي أسفرت عن سيطرة المسلمين العرب على الممرات الاستراتيجية في سلسلة جبال الألب التي تربط إيطاليا ببقية أوروبا وذلك لعدة عقود في القرن العاشر الميلادي.

إن هذه المقالة هي إيجاز سريع لأحداث تلك المرحلة. وهي تحاول تحليل الدوافع التي أدت إلى التوغل الإسلامي في أوروبا الغربية، وإلى أسلوب إدارة المسلمين لتلك المناطق التي لم تكن جزءاً من الدولة الإسلامية، وأخيراً إلى المشروعية الحديثة التي يمكن استخلاصها من تلك المرحلة عندما سيطرت القوات العربية - الإسلامية على جزء هام من طرق المواصلات الأوروبية الغربية.

## في الوقائع

في وقت ما حوالي عام 889 ميلادية، نزلت قوة صغيرة من المسلمين العرب (قوامها حوالي 20 رجلاً) في منطقة فرنسية على ساحل البحر المتوسط قريبة من منطقة تعرف اليوم باسم "سان تروبيز (1) St. Tropez". وكانت هذه المنطقة تُعرف في القرون الوسطى باسم "فراخيناتوم Fraxinetum". أما اليوم فأنها تعرف باسم "فرينيه Frainet" وهي تقع في إقليم الـ "فار Var"، جنوب فرنسا.

ويبدو أن الموقع والمحيط العام كانا مناسبين للمسلمين العرب الذين أقاموا التحصينات الدفاعية، ومن ثم استقبلوا بعد عدة سنوات هجرات متلاحقة، بما في ذلك هجرات من النساء والأطفال.

ووفر جبل مجاور للموقع يُعرف اليوم باسم جبل الـ "مور Maures" (وهو الاسم الذي كان يطلقه الأوروبيون على عرب الأندلس) حجر الزاوية في منظومة الدفاع ضد الهجمات البرية. ومع الوقت نمت هذه المستوطنة حجماً وسكاناً.

وما أن تمّ تحصين هذه المستوطنة ضد أي هجوم معاكس، حتى بدأ العرب المسلمون توسيع هيمنتهم إلى الممالك المجاورة، ومنها مملكة بورغوندي Burgundy، ومملكة إيطاليا Piedmont. ولما لم تبد تلك الممالك مقاومة تذكر، ولما كانت عائدات الهيمنة عالية، تمكنت المستوطنة العربية الإسلامية في فراخيناتوم Fraxinetum من جذب المزيد من موجات العرب المسلمين من إسبانيا الإسلامية (الأندلس).

واستناداً إلى مصادر معاصرة فإن السبب الرئيس الذي أدى إلى توفير حرية الحركة نسبياً في هذه المناطق، هو أنها كانت مقسمة الولاءات بين عدد كبير من الأمراء والنبلاء الأوروبيين الصغار. وكان الواحد منهم حتى يستقوي على الآخرين، لا- يتورع عن التحالف مع المهاجمين العرب المسلمين (2).

وطوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العاشر، أي حتى عام 930 ميلادية، لم يقم القادة الأوروبيون المحليون بأي عمل مضاد يذكر. وخلال هذه السنوات نجح العرب المسلمون في اقتحام أو تدمير جزئي أو كلي لعدد من المدن مثل مدينة "أستي Asti" ومدينة "أكوي

Acqui " في الشرق، وكذلك عدد من الأديرة في "نوفاليز Novalise " و "أولكس Oulex"، و "أمبرون Embrun" "وفينّا Vienne" و "فالنسيا Valence " في الغرب، كما شنوا هجمات أساسية على عدد آخر من المدن، مثل مدينة "اكس أون بروفانس Aix-en-Provence"، و "مرسيليا Marseille" في الجنوب(3).

وأهم من ذلك كله، تمكن العرب المسلمون في ذلك الوقت من السيطرة على الممرات الثلاثة الأساسية بين فرنسا وإيطاليا. وهي: "سان برنارد St. Bernar"، وجبل "سان انيس Mt. Cenis" وجبل "جنيف Mt. Geneve"، وبذلك أصبحوا قادرين على السيطرة على طرق التجارة، وعلى التحكم بحركة الحجاج من المناطق الشمالية والغربية والذين يستخدمون هذه الممرات في طريقهم إلى روما(4).

ويبدو أن هذا العامل الأخير هو الذي أدى إلى بذل أول جهد جدي لإخراج العرب المسلمين من مستوطنة "فراكسيناتوم Fraxinetum". ففي عام 931م هاجمت وحدات من الأسطول اليوناني البيزنطي المستوطنة من البحر. ولكن يبدو أن هذا الهجوم لم يكن مؤثراً، ذلك أن الوقائع عن أحداث ذلك العام، تثبت أن العرب المسلمين كانوا لا يزالون يسيطرون على الممرات الرئيسية في جبال الألب الغربية. بل أن عملياتهم ازدادت حجماً وضراوة، ذلك أن هـ، وعلى سبيل المثال، كانوا وراء مقتل رئيس الأساقفة روبرت Archbishop Robert مطران تورز Tours، وهو في طريق عودته من روما عبر أحد الممرات الغربية.

وفي العقد التالي، ازدادت بشكل كبير مساحة الأراضي الخاضعة لسيطرة العرب المسلمين. وتجاوزت عملياتهم شمال الألب ووصلوا إلى الدير الشهير في سان موريس St. Maurice في وادي الرون Rhone. وفي الوقت نفسه تركوا آثارهم حتى في شمال الوادي(الرون) أيضاً. وغنموا مواقع المطرانية في شير ريتيا Chur in Rhaetia.

ولأن الهنغاريين بدأوا في ذلك الوقت غزواتهم واجتياحاتهم لوسط وغرب أوروبا، فإن الوقائع التي شهدتها تلك العقود من القرن العاشر تتسم بحالة من الإرباك، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها دائماً. من أجل ذلك فإن هـ ليس واضحاً تماماً أي طريق سلكه المسلمون العرب في تقدمهم إلى ما يعرف اليوم بجنوب سويسرا، ثم إلى المناطق الشمالية الأبعد. إلا أن هناك ثلاثة طرق محتملة، لكل منها ما يبرر الاعتقاد بأنهم سلكوه. كما أن لكل منها من يشكك فيه. أول هذه الطرق المحتملة هي أن المهاجمين العرب المسلمين تقدموا بشكل منهجي مع وادي الرون Rhone Valley، وأجتازوا ممر فوركا Furka Pass ومن هناك تابعوا خط الراين Rhine. ويقدم البعض دليلاً على ذلك أسماء عربية لبعض المواقع (مثلاً: برج السراسين - أي برج المسلمين العرب) قرب مدينة فافي Vevey السويسرية، ووجود مقبرة في منطقة جنيف للمسلمين العرب.

أما الطريق الثاني الذي يحتمل أن يكونوا قد سلكوه فهو طريق جبل سينيس Mont Cenis عبر السهول الإيطالية الشمالية، شمالاً حتى سويسرا اليوم عبر ممر برناردين

Bernardin وسبتيمر Septimer. غير أن عدم توفر سجلات عن آثار عمليات قام بها المسلمون العرب في المدن المجاورة للممرين أو في ضواحيهما، تلقي بعض الشك على هذا الاحتمال.

أما الاحتمال الثالث فهو التقدم عبر ممرّ سان برنار St. Bernard ومن ثم شمالاً عبر سلسلة أودية التلال الألبية، ومواصلة التقدم شمالاً عبر الممرات المتوفرة: جبل مورو Monte Moro (جبل المغاربة)، ثم لوقمانير Lukmanier (لقمان) وغيرها. وهذه الطريق وقرت لهم مواجهة الحد الأدنى من المقاومة، ثم أنها معززة بعدد كبير من أسماء المواقع التي قد توحى بأنها عربية الأصل(5).

على أي حال، وأياً كانت الطرق التي سلكوها، يبدو أن ه في العقد الثالث من القرن العاشر، استقر العرب المسلمون بشكل جيد في بعض المدن الإيطالية الشمالية الواقعة في وديان التلال الألبية(على سبيل المثال: فيرسيلي "Vercelli"). وسيطروا على الأقل على الطرق الرئيسية في الألب التي تربط الشمال بالجنوب. وهي: سان برنارد الكبير Great St. Bernard، وبيرنهاردين Bernhardin وسبتيمر Septimer، ومع احتمال سيطرتهم أيضاً على جبل مورو Mont Moro ولقمانير (لقمان)، وربما سيمبلون Simplon أيضاً.

مرة جديدة أدى توسع المسلمين العرب، وطبيعة العمليات التي كانوا يقومون بها، إلى بذل الجهد الأوروبي المشترك لتدمير فراكسيناتوم Fraxinetum، باعتبارها قاعدة العمليات. حاولت قوات تابعة للملك الإيطالي هيغو Hugo شنّ هجوم مشترك على المدينة بالاشتراك مع البيزنطيين.

واستناداً إلى وقائع معاصرة لتلك الفترة، فأن سيطرة اليونانيين على البحر من جهة، والهجوم البري للملك هيغو عبر جبل مور Mont Maures من جهة ثانية، كان على قاب قوسين أو أدنى من النجاح. ولكن الملك هيغو الذي فوجئ بمنافس شديد المراس على عرشه، قرر توجيه اهتمامه نحو مصالحة الشخصية، أي نحو مستقبله على العرش الإيطالي.

ففي ذلك الوقت، ادعى بالعرش الكونت بيرينغار Berengar من أي فريا Ivrea وحشد لتأييد إعداءاته. وحاول بشكل خاص الحصول على دعم هيرمان Hermann من صوابيا Swabia، واجتاز من أجل ذلك ممر سان بيرنار الكبير في طريقه شمالاً للحصول على المساعدة الضرورية. هنا ألغى الملك "هيغو" هجومه على مستوطنة "فراكسيناتوم" القاعدة العربية، ودخل بدلاً من ذلك في حلف مع المسلمين العرب. وبموجب هذا الحلف سيطر العرب المسلمون على جميع ممرات الألب من الغرب (جبل جنيفر Mont Genevre) إلى الشرق (ممر سبتيمر Spetimer).

وعلى الرغم من أن الأمور استقرت لهم، فأن المسلمين العرب استناداً إلى بعض الوقائع، شنوا مزيداً من الهجمات على المناطق الواقعة في شمال الألب. وعلى سبيل المثال

هوجمت شور Chur أكثر من مرة، كما هوجمت سان غالين St. Gallen التي تقع بالقرب من بحيرة كونستانس Constance وذلك في عام 954 ميلادية وهو العام نفسه الذي وقعت فيه أيضاً مدينة غرونوبل Grenoble في الغرب بأيدي العرب المسلمين.

يبدو أن المسلمين العرب بلغوا في تلك الفترة أوج قوتهم. وعلى الرغم من وجود وقائع تعود إلى عام 972م (من هذه الوقائع بشكل خاص فرض ضريبة على سان مايولوس St. Maiolus في كلوني Cluny) تؤكد سيطرتهم على سان برنارد St. Bernard، فإن الوقائع المعاصرة تتوافق مع التراجع العام في عملياتهم.

(إضافة إلى ذلك هناك وقائع مسجلة عن اعتناق المسيحية من قبل عناصر من الوثنيين في المناطق الجبلية وهو أمر استمر حتى بدايات القرن الحادي عشر) (6).

وفي أواخر عام 960م إسترجع الأوروبيون مدينة غرونوبل Grenoble من المسلمين العرب، كما أن مجموعة من الممرات الجبلية التي كان يعبرها ملوك أو شخصيات سياسية مرموقة لم تعد بيدهم أيضاً.

وفي عام 975 جرت محاولة جديدة للسيطرة على القاعدة العربية - مستوطنة فراكسيناتوم، قام بها تحالف من النبلاء: وليهام Duke Wilhelm نبيل ارليز Arles، والكونت اردوين Arduin، نبيل أيفريا Everea وتورين Turin، وربما الكونت روبالد Robald، نبيل البروفنس Province.

هذه المرة نجحت المحاولة وتمت السيطرة على فراكسيناتوم. فُنشنت سكانها المسلمون وطُرد بعضهم، وُدُول بعضهم الآخر بالقوة إلى المسيحية، وأجهز على بعضهم، وبيع البعض الآخر عبيداً في سوق النخاسة. (وقد بقيت ذرية هؤلاء عبيداً في المنطقة حتى بعد مرور أربعة قرون). ويبدو أن القليل جداً منهم تزوج واستقرّ محلياً (7).

## الدوافع

من الصعب الجزم بدقة في أسباب إقامة مستوطنة فراكسيناتوم. فإستناداً إلى العديد من الكتاب (بما في ذلك وقائع تلك المرحلة)، كان غرب البحر المتوسط مسرحاً لهجومات مسلحة متبادلة بين المسلمين والمسيحيين، إلا أن اليد العليا كانت للمسلمين الذين وصفهم الكتاب الغربيون والمؤرخون منهم بالقراصنة، واتهموهم بالتسبب في زعزعة التجارة والحياة الاقتصادية المحلية. وإستناداً إلى ذلك تكوّن اعتقاد بأن عاصفة هوجاء ربما تكون قد دفعت إلى الشاطئ المجموعة الصغيرة الصغيرة التي أقامت تلك المستوطنة. وهو اعتقاد يوحي بأن قيام مستعمرة "فراكسيناتوم" كان مجرد صدفة.

ولكن هناك نظرية أخرى تقول أنه خلال عهد الأمراء (لاحقاً الخلفاء) في قرطبة، أصبح تقليداً القيام بغزوات متواصلة على مناطق الحكام المسيحيين، وهي المناطق التي تُعرف اليوم بفرنسا وإسبانيا.. وكانت تلك الغزوات تسمى بـ"الصيفية" لأنها كانت تجري خلال فصل الصيف. ويبدو أن الهدف الأساس من وراء تلك الغزوات الصيفية هو إظهار الالتزام

الديني بركن الجهاد، والذي لا يمارس إلا خارج حدود دار الإسلام(8).

وبما أن المشاركين في الغزوات كانوا يحصلون على كميات كبيرة من الغنائم، فيبدو واضحاً أن هـ كان هناك هدف آخر وراءها، وهو زيادة الثروات الشخصية للطامحين والمغامرين. ولعل هذا ما يفسر على سبيل المثال، مشاركة مسيحيين ويهود في تلك الغزوات، كما تؤكد تلك الوقائع. على أي حال ألحقت "الصيفية" بالسكان المحليين صعوبات كثيرة. ذلك أن هـ بالرغم من المبالغات المسيحية حول السلوك الإسلامي، فمن الواضح أن غزو وتدمير القرى الصغيرة والقضاء على المحاصيل الزراعية كان سلوكاً عاماً.

وهناك مؤشرات إلى أن بعض هذه الغزوات على الأقل، كان يُنفذ من أجل الحصول في الدرجة الأولى على أسرى من الرجال يطلق عليهم اسم "الصقالبة". وكانوا يُنقلون إلى إسبانيا ومن ثم ينضون في الخدمة الشخصية للأمير / الخليفة. وبما أنهم كانوا يعتبرون رجالاً أشداء يمكن الاعتماد عليهم في القوات المسلحة والحرس الشخصي، وبما أنهم كانوا يُدرّسون ويُدرّبون في المعاهد الإسلامية من أجل هذا الهدف، فإن هذه العملية تشبه ما قام به سلاطين بني عثمان فيما بعد- الذين كانوا يجندون ويوظفون السجناء المسيحيين (قوات ال إنكشارية). وفي الحالتين غالباً ما كان السجناء الذكور يُخصّون(9).

وتشير كل من السجلات الإسلامية والمسيحية معاً إلى ممارسة عمليات الحصول على "الصقالبة" من مختلف المناطق، رغم أن هـ يبدو أن المصدر المفضل كان وادي الرون Rhone وشمالاً حتى ميتز Metz وفردان Verdun.

ومن المثير للاهتمام هو أن اليهود في هذه المنطقة تصرفوا باستمرار كوسطاء بين ال إسبان المسلمين والمصادر الأوروبية التي كانت تزودهم بالرجال. أن يهود منطقة براغ Prag، وهي مركز آخر للتزود بالرجال ساهموا تحديداً في هذا النوع من التجارة. مع ذلك فأنا لا- نعرف ما إذا كان هؤلاء الوسطاء اليهود قد استقدموا من إسبانيا، أم أن هم كانوا يقومون بنشاطهم التجاري كأعضاء في الجالية اليهودية من أبناء تلك المناطق(10).

أن مصدر كلمة "صقالبة" نفسه كان موضع جدال بين اللغويين. وذلك ل أن الرحالة العرب في القرون الوسطى كانوا يطلقون على السلاف في أوروبا الوسطى اسم صقلبي للمفرد، وصقالبة للجمع. ولا يعرف ما إذا كان هذا اللفظ العربي مشتق من اصل لاتيني أي من كلمة اسكلافوس Esclavus ومعناها العبد، أو من الكلمة العربية للسلاف. ويبدو أنه يمكن العودة بها إلى أي من المصدرين.

### النماذج الإدارية

من المتفق عليه بصورة عامة أن الجيوش العربية الإسلامية التي أقامت الإمبراطورية المترامية الأطراف في القرن الذي أعقب وفاة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت قد استحدثت مبادئ متطورة نسبياً لإدارة الأراضي والشعوب التي خضعت لاحتلالها(11).

ورغم هذه المبادئ، يبدو أن العناصر المتقدمة من الجيوش المنتصرة كانت اقل اهتماماً بجماليات الإدارة العامة. فالقانون الذي استحدث أو الذي جرى تطويره للتعامل مع شعوب الأراضي الجديدة الخاضعة للإدارة الإسلامية، لم يكن باستمرار موضع التزام.

إذ أن ما أن يثبت الاحتلال أقدامه، حتى يبدأ العمل بالإجراءات الإدارية التي كانت تعكس قدراً كبيراً من التسامح مع الشعوب المحتلة ومع معتقداتها وممارساتها الدينية والاجتماعية. وليس هذا هو الموضع المناسب الآن للحديث -على سبيل المثال- عن الإنجازات الإدارية والثقافية للإدارة العربية في إسبانيا وصقلية أو في غيرهما من الأراضي التي جرى أسلمتها. غير أنه يبدو أن السؤال الهام في هذا الشأن، هو: متى ولأي سبب كانت الجيوش العربية وقادتها يقررون وضعية المنطقة الجديدة ووضعية سكانها، وبالتالي تحديد النماذج الإدارية التي كانت تطبق عليها؟ فبالرغم مما كان يتمتع به الخليفة في قرطبة من مواصفات كريمة وإيجابية، فإن السجلات الأوروبية عن تلك المنطقة تتضمن معلومات عن غزوات إسلامية في المناطق الأوروبية بعد هزيمة بواتيه Poitiers، وهي سجلات حافلة بتقارير عن سلوك معاكس. فإلى ماذا يمكن أن نعزو هذه النماذج البائسة من سلوك القوات العربية الإسلامية؟

من المؤكد أنه من الصعب التحقق بدقة في هذا الوقت المتأخر من صحة هذه الأحداث ومن نماذج السلوك التي كانت ترتبط بها. ولكن هناك ما يبرر بوضوح التعامل بشيء من الريبة والشك مع المصادر المسيحية المتعلقة بالمسلمين العرب. مع ذلك يبدو أنه بالإمكان التوصل إلى إستنتاجات عامة، فمن اللافت للانتباه أن نالنا -نملك مصدراً عربياً واحداً معاصراً عن تلك الأحداث التي جرت هناك. علماً بأنه يمكن في المستقبل إلقاء الضوء على بعض هذه المصادر. ويبدو مشروعاً في هذه المرحلة أن نستنتج بأن علية القوم في قرطبة، لم يكثرثوا كثيراً للنشاطات التي كانت تقوم بها مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum. وفي الواقع فإنهم رغم أن ثمة دليلاً يشير إلى أن أعداداً كبيرة من المسلمين العرب كانوا معنيين بنشاطات المستوطنة على مدى مائة سنة، فإن المعلومات الجغرافية والسياسية والاجتماعية عن أوضاع المنطقة التي سيطروا عليها لم تجد طريقها إلى أوروبا (12).

وعلى الرغم من أن هناك دلائل على وجود اتصالات تجارية متطورة وعلى الرغم من أننا نعرف من مصادر أوروبية وعربية أنه جرى على الأقل اتصال دبلوماسي واحد بين الأوروبيين المسيحيين (الملك أوتو الأول Otto) والخليفة في قرطبة (عبد الرحمن الثالث)، وعلى الرغم من أننا نعرف أن هدف هذا الاتصال كان التمني على الخليفة وقف مساعداته إلى مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum، فإن كل ما يتضمنه هذا العرض من الأحداث لم يأت المؤرخون المسلمون على ذكرها، كما أنها لم ترد في أي من وثائقهم (13).

ومن شأن ذلك أن يقدم لنا دليلاً حول الإستنتاجين التاليين:

أن نشاطات مستوطنة فراكسيناتوم كانت في كليتها أو في معظمها تقوم بها قوات - 1 غير نظامية. أي قوات متجمعة من القراصنة والمرترقة (بمن فيهم مسيحيون ويهود

(ومسلمون) من دون أن يكون بينهم أحد من العلماء

أن النظرة إلى نشاطات مستوطنة فراكيناتوم لم تكن تتعدى كونها رحلة "صيفية" - 2  
إناجحة، أو ربما براءة للذمة الدينية في ممارسة "ركن الجهاد"؟

وتؤكد الأدبيات المعاصرة، ولاحقاً الأدبيات الأوروبية، أن التفسير الوحيد لتراجع القوات العربية - الإسلامية من المناطق الألبية، يعود إلى غضب السكان المحليين الذي انفجر بعد لفرض القوة على السكان. ولكن في ضوء St. Maiolus السيطرة على سانت مايولوس المحاولات غير المجدية التي جرت خلال العقود القليلة الأولى من وجودهم، فإن هذا التفسير يبدو غير مقنع. أن قراءة متأنية لملايسات توسع وتراجع مستوطنة فراكيناتوم تشير إلى احتمال وجود عامل آخر، قد يكون مهماً. وهو عامل غفل عنه الكتاب السابقون، "ويتعلق بدور الخليفة في قرطبة في رعاية أو حتى في دعم هذه "الصيفية".

ويبدو أن موت الخليفة عبد الرحمن في عام 961م، واعتلاء ابنه الحَكَم الثاني العرش، شكل نقطة تحوّل جذرية. فالمستندات المعاصرة والحديثة تؤكد أن الحَكَم كان أكثر تسامحاً وحباً للسلام من والده؛ وأن سياساته الداخلية والخارجية، وكذلك سلوكه الشخصي الذي تشير إليه هذه المستندات، تجعل من الممكن القول أن هـ - أي الحَكَم - رفض مواصلة دعم "الصيفية" التي كانت تزعج مسيحيي أوروبا الوسطى.

ومن الممكن أن يكون قد أوقف الإذن بالسماح للقوات المساندة بالتوجه إلى مستوطنة فراكيناتوم من المرافئ الإسبانية. ولعله تأثر باتخاذ هذا القرار بالبعثة التي كان قد إلى قرطبة. وهكذا، وبأنعدام هذا الدعم (المادي والبشري) Otto أوفدها الملك أوتو الأول يات من الطبيعي أن تصبح للسكان المحليين في المناطق الألبية اليد العليا

وبما أنه يفترض أن يكون المسلمون قد منوا بخسائر في الأرواح من خلال اشتباكاتهم المتواصلة مع السكان المحليين، وبما أنه يفترض أيضاً أن يكونوا قد منوا بمثل هذه الخسائر في المعارك التي خاضوها ضد الهنغاريين الذين كانوا يجتاحون المناطق الغربية من أوروبا، فقد كان من الضروري بالنسبة إليهم أن يكون هناك مصدر للدعم يعتمدون عليه. غير أن مراجعة أحداث منتصف القرن العاشر تشير إلى تراجع حاد في قوة قبضتهم بعد منتصف الستينات من العام 900م، سيما إذا ما قورنت بسجل النجاحات الباهرة إلى حققوها حتى ذلك الوقت. مع ذلك فإننا لا نملك أي مؤشرات على أن هذه القوات الإسلامية التي كانت تعمل في ممرات الألب عانت من أنتكاسات أو هزائم على يد السكان المحليين. وإذا كان ثمة من أمر، فهو الإشارة إلى أنه كانت هناك عملية انسحاب عندما وقع حادث مما يؤكد أو St. Bernard. في ممر سان برنارد الكبير St. Mailus سانت مايولوس يعزز الاحتمال بوجود تغيير في سياسات الخليفة، ويقدم بالتالي تفسيراً أكثر عقلانية لظاهرة اضمحلال الوجود الإسلامي العربي في المناطق الألبية.

المؤشرات الأثرية



احتفظت هذه الممرات الألبية التي تفصل شمال وغرب أوروبا عن إيطاليا بقدر كبير من أهميتها الجغرافية حتى السبعينات من عام 1970م ، ولذلك من المفيد تلخيص وتحليل المتوفر من المعلومات التي تتعلق بهذا القرن من نشاطات المسلمين العرب.

يبدو أن البحث المنظم عن الآثار المتعلقة بالمسلمين العرب في جنوب فرنسا والمناطق الألبية لم يبدأ إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. فالكتاب الأولون الذين أبدوا اهتماماً بتلك المرحلة، تفقدوا بصورة خاصة القلاع والتحصينات المختلفة التي تعود إلى المسلمين العرب، وذلك استناداً إلى الروايات المحلية وأحياناً إلى بعض المعلومات الموثقة (14)، وإلى القليل جداً من المخطوطات.

بأبحاثه المستفيضة عن الوجود العربي Jean Lakam استمر ذلك حتى قام جون لاكام الإسلامي. وقد شمل ذلك المقابر والأسلحة، والنقود والآبار، والمباني (15)، وأهم من كل ذلك، اكتشاف "المحراب" في جدران بعض الكنائس في جنوب فرنسا وخاصة في Narbonne ومن الممكن كذلك أن تكون بعض الكنائس والكاتدرائيات القائمة. (16) ناربون Narbonne قد بنيت أساساً كمساجد وتمّ Rhone ووادي الرون " Var اليوم في منطقة الـ"فار" تحويلها بعد ذلك. ومن سوء الحظ أن بحثاً مماثلاً لم يجر حول هذا الأمر في سويسرا.

### المؤشرات اللغوية

لعل الخلاف الأشد بشأن الوجود العربي الإسلامي في المناطق الألبية يقع في دائرة: البحث اللغوي. ويعود عدم التأكد إلى عدة أسباب:

أولاً: هناك خلافات كبيرة بشأن مصدر العديد من أسماء الأشخاص والمواقع في المناطق الألبية. وقد أدى ذلك إلى اعتقاد عدد من العلماء والكتّاب في القرن التاسع عشر إلى أن بعضها يعود إلى أصول عربية (17). ومما لا شك فيه أن ذلك ترافق مع وجود عدد كبير جداً وبشكل غير طبيعي من أسماء المواقع في سويسرا التي تبدأ بـ"ال" -التعريف العربية. والأمثلة على ذلك تتضمن أسماء مثل:

Al magell :الماجل

Al bula :البولا

Al bana :البانا

Al bris :البريس

وهذا غيوض من فيوض

وفي (Anzasc ثانياً: هناك مواقع عديدة في شمال إيطاليا (وخاصة في وادي أنزاسكا كجزء من الاسم. وعلى سبيل Moor جنوب سويسرا وفي شمال فرنسا تحمل لفظة مور (في جنوب فرنسا) Mont de Maures المثال جبل دي موراس).

(على الحدود بين إيطاليا وسويسرا) Mont Moro وجبل مورو

أن الأمر المثير حقاً في معظم هذه الحالات هو أن المواقع التي تحمل هذه الأسماء كانت إما مواقع للمسلمين العرب حيث أقاموا فيها حصوناً وقلعاً، أو أنها تقع في طريق الممرات والطرق التي سيطروا عليها واستخدموها.

أن بحثاً لغوياً من هذا النوع هو بحث تخميني بدرجة عالية ومن المستحيل معرفة

أ- أي لغة أو لهجة اعتمد المسلمون

ب- كيف كان لفظ عدد من الكلمات الأساسية

ج- أي تحوير طرأ على الكلمات العربية على مرّ القرون على يد المتحدثين الألمان والفرنسيين والإيطاليين.

وهناك المزيد من الإشكاليات التي تتعلق بهذه التخمينات. منها أن اسم أي موقع في سويسرا يبدأ بحروف أ - ل - ب يصبح موضع شك على الفور. ذلك أنه من المرجح أن الاسم المتداول هو ببساطة مشتق من الألب. لذلك لا يمكن أياً ثقة كبيرة بأن تكون أسماء هذه المواقع من مصادر عربية حكماً.

ولكن على الرغم من وجود أسماء أخرى يحتمل أن تكون مشتقة من أسماء عربية فأنا لا نملك أي منهجية علمية لتثبيت هذا الربط. وهذه لائحة مختصرة بأسماء المواقع التي يعتقد على نطاق واسع أنها مرتبطة بوجود المسلمين العرب والتي لا تزال مستخدمة حتى اليوم(18):

مدينة هامة على طريق ممرّ برنينا،) pons Saracenorum جسر السراسينوروم - أي جسر المسلمين العرب (Pontresina تدعى اليوم

- Almagell (المحل) قرية في وادي الساس

- Allain - Allalain (إلى العين) جبل قرب وادي الساس

- Alp Aien (العين) جبل في وادي الساس

Mushbil مشأيل ومشبل(سلسلة ينابيع مياه في وادي الساس واسمها الأصلي - أشبال الأسد) Mushabil

(Jabi جابي- أي جامع الضرائب) قرية في الطريق إلى ممر سيملون واسمها الأصلي Gstein- Gabi.

تجدد الإشارة هنا إلى أن الاسم الأول فقط من هذه اللائحة موثق في المصادر هو Pontresina المعاصرة(19). ومما لا شك فيه على الإطلاق أن مصدر اسم بونترسينا وهذا ما يعطي الانطباع بأن Saracens الاسم الوصفي اللاتيني بمعنى جسر السراسين

السرائسين (أي المسلمين العرب) أقاموا هناك جسراً هاماً. أكثر من ذلك، أن الاسم العائلي (يرتبط بغطاء للسلاح يشبه شكل الجسر (Sarraز 20) الأكثر تداولاً في المنطقة سراز).

إضافة إلى ذلك هناك أسماء العديد من المواقع:

جسر سراسين، إضافة إلى أسماء عدد من القرى، Chateau Sarasim قصر سراسين (حفرة) Berner Jura الصغيرة في غرب سويسرا التي تنتشر شمالاً- حتى برنر جورا والتي يعتقد أن أصولها تعود إلى المسلمين العرب (L a Saras برنر) (السرائس (السرائسين). وبما أن ثمة وثائق تؤكد أن هذه التسميات لم يكن لها أي ذكر إلا بعد وجود المسلمين العرب فيمكن القول أن ثمة علاقة تاريخية بينهما. مع ذلك ينقص الإثبات

إن الأسماء التي يظن أنها مستخرجة من العربية تثير القدر الأكبر من الصعوبة

ويمكن الاعتقاد بأن الصلة المنطقية بين تعبير معين باللغة العربية وما يدل عليه في الوقت الحاضر يؤكد صدقية هذا الادعاء. غير أن هذا المنطق يصطدم بصعوبات معينة. فالبحث في الاسماء العربية التي يفترض أن تكون محل استخدام في مثل هذه المناطق، (مثل: الثلج والجليد والممر والانهيال الثلجي والشقوق والحواجز والسيول، وسواها) ليست على تماثل مع الأسماء المتداولة. غير أن ذلك وحده لا يكفي بشكل كامل لاستبعاد أسماء هذه المواقع التي يعتقد أنها مشتقة من العربية. فهي تشير إلى صعوبة الاحتفاظ بأسمائها لمدة ألف عام من دون تغيير أو تحوير. أكثر من ذلك، ففي واحدة من المواقع التي أشرنا ثمة من الأدلة ما يشير إلى أن الاسم مشتق في الحقيقة من Mushbail إليها أعلاه، مشبل لهجة محلية. وفي اعتقاد أحد المؤرخين المرموقين، فإن هذه السلسلة الجبلية بالذات تستمد ومعناها (شوكة السّمد)، وهو اسم يشبه إلى حد Mistgabel اسمها من اسم محرف هو كبير إحدى الأدوات الزراعية المحلية المستخدمة على نطاق واسع

ومما يعزز هذا الاعتقاد أن وجود العديد من المواقع في المنطقة التي لم تحمل أي اسم على الإطلاق حتى وقت متأخر. فبعض الاسماء المعروفة اليوم ربما تعود بشكل مباشر إلى الأحداث التي وقعت خلال السنوات الخمسين الماضية والتي لا يعرف مصدرها سوى المحليين من السكان (المسنون منهم) الذين يتذكرون تلك الأحداث. (يبدو أن مصدر هذه (التسمية ليس جزءاً من الفولكلور المحلي

ومن جهة ثانية يجب أن نضيف إلى ذلك كله أن السكان المحليين في هذه الوديان الجبلية يشعرون بحساسية مفرطة تجاه تصنيفهم بأنهم من أصول إسلامية - عربية. فقد رفضوا بأشد التعابير القول بأنهم يتحدرون من أصل عربي. وربما يكون ذلك قد أثر على صحة المعارف المحلية، وساهم في دفع الأمور نحو البحث عن تفاسير بديلة بما يدعم هذا الجدل (الكلامي) (21).

### الدلائل الاقتصادية

يعتقد بعض الباحثين أن العرب المسلمين ساهموا في تطوير الحياة الاقتصادية للسكان

الذين كانوا تحت سيطرتهم، وخاصة في فرنسا وسويسرا. ففي فرنسا تتضمن هذه الإسهامات:

ويعرف هذا النوع من القمح في Var أ - إدخال زراعة القمح وخاصة في منطقة الفار ومما يؤكد على ذلك الاسم الثاني له وهو قمح Ble noir فرنسا باسمين هما القمح الأسود (السراسين) أي القمح العربي الإسلامي).

كما تشير Freinet ب - إدخال زراعة شجر البلوط في المنطقة المحيطة بمنطقة فرينيه إلى ذلك الروايات المحلية

ج - إدخال الطريقة العربية في تحويل لب خشب الصنوبر إلى قطران لتشغيل المراكب البحرية. ودعماً لذلك يشير هؤلاء الباحثون إلى أن الكلمة الفرنسية لقطران شجر الصنوبر (وهي مشتقة من الكلمة العربية قطران) (22، Goudron هي قودرون

مع ذلك فإن هذا الدليل ليس مجرداً من الإشكاليات، إنه يعتمد من جهة على الإشكاليات اللغوية، ومن جهة ثانية على التقاليد المحلية. في الحالة الأولى فإن هذه الإشكاليات لا تظهر ارتباطاً عادياً بين الاسم والمسمى بشكل واضح، وفي الحالة الثانية فإن الروايات المحلية لا يمكن الاعتماد دائماً عليها.

إن لبعض الأدلة حضوراً أقوى، ويمكن الاعتماد عليها أكثر. ويبدو أن المسلمين العرب ولافيريبه Tende قاموا بأعمال منجمية (حفر مناجم بحثاً عن المعادن) وخاصة في تاند حيث صنعوا كما يبدو الأسلحة. وفي هذه Barcelonette قرب برشلونة La Ferrier الحالة جرى البحث التقييبي فعلاً في هذه المناجم

هناك (Valuria أكثر من ذلك، ففي المناجم قرب تاند (وكذلك في مناجم فالوريا وذلك لأنهم) أي، Gallerie Sarrasine "معارض تحمل اسم "معرض المسلمين العرب (المسلمين العرب) هم الذين قاموا بحفرها (وهذه حالة مثبتة من خلال الآثار المتبقية

أما في سويسرا فإن الأدلة تبدو أقل جزمًا. وفي الواقع فإن كل ما قُدم من حجج يتوقف على روايات محلية، رغم أن بعض المظاهر الاستثنائية في المناطق المشكوك فيها تستحق تقول إن Rhone الإهتمام. مثلاً- على ذلك، توجد رواية محلية في أحد وديان الرون المسلمين العرب عندما أقاموا في هذا الوادي ادخلوا زراعة نوع معين من العنب، الذي لا يزال يزرع هناك حتى اليوم

أي Heiden Wein وفي الواقع فإن الخمر الذي يعصر من هذا العنب يعرف محلياً باسم خمر الوثنيين، وذلك كمؤشر إلى أنه ادخل عن طريق غير المسيحيين. ويمكن اعتبار هذا الأمر مؤشراً في حد ذاته

وهناك من يعتقد أن المسلمين العرب هم الذين أدخلوا لحم الغنم كمصدر للحوم. كما أن إمتناع السكان المحليين عن تربية الخنازير لا يمكن تفسيره إلا على أنه يعود إلى فترة حكم

المسلمين العرب.

وباختصار لا يمكن القول بأن ثمة مؤشرات كثيرة على النشاطات الإقتصادية التي قام بها المسلمون العرب، ولكن من جهة أخرى، فإن ما يتوفر لدينا من أدلة تشير إلى أنه كان أثر أكبر مما يبدو من خلال قراءة الوقائع Fraxinetum لنشاطات مستوطنة فراكسيناتوم المعاصرة.. ربما كانت نشاطاتهم أكثر تنوعاً وأبعد مدى مما كان يعتقد. ومن شأن ذلك أن يطرح السؤال حول ما إذا كان المسلمون العرب قرروا البقاء طويلاً في هذه المناطق ثم تراجعوا عن هذا القرار بتوجيه من الخليفة (الحكم) في قرطبة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

### (المؤشرات العنصرية (الاثنية

تعتبر هذه المؤشرات المصدر الأكثر جدوى، وهي في الوقت نفسه، المساحة الأكثر إهتماماً لتأكيد الأحداث الماضية من خلال البصمات المعاصرة.

ففي الحالة الفرنسية، وجد الباحثون أن عدداً من الاستخدامات والعادات المثيرة للاهتمام تعود إلى زمن الاجتياح الإسلامي - Rhone وفي وادي الرون Provence في بروفنسا العربي. ومن هذه العادات بعض الرقصات الشعبية - الفولكلورية، والاحتفالات الخاصة المتعلقة بخروج المسلمين العرب من القرى الصغيرة. هنا نجد أن بعض الباحثين يتعامل مع هذه المؤشرات بشيء من الشك، وذلك بحجة أن المساهمة العربية - الإسلامية، ربما تكون قد جاءت في وقت متأخر وتركت بصماتها في مرحلة لم يكن السكان القرويون يعرفون عنها الكثير.

ومن جهة ثانية وافق العلماء الإختصاصيون في تلك المرحلة (مطلع القرون الوسطى) ومن زمن طويل، على أن الغزوات العربية الإسلامية، وأن الوجود العربي الإسلامي في جنوب فرنسا تركا آثاراً بعيدة المدى. والسؤال هو: إلى أي درجة؟ وثمة سؤال آخر مرتبط بالموضوع الحالي وهو: هل يمكن (أو هل من الضروري) الفصل بين المؤثرات الواضحة عن الغزوات والاحتلالات التي وقعت في منتصف القرن الثامن، عن تلك التي وقعت في منتصف القرن العاشر؟

بالنسبة للجواب على السؤال الأول، فإن بعض العلماء يعتقد أن التأثير كان بنوياً، وأنه غير بشكل كامل مستقبل أوروبا. وبالنسبة لعلماء آخرين فإن تلك الاجتياحات دمرت الوحدة الثقافية والتجارية للبحر المتوسط وأدت إلى إعادة تجمّع المراكز الثقافية الأوروبية في الشمال. وهناك آخرون يعتقدون أن هذه الاجتياحات غيرت العلاقات الدينية - السياسية القائمة بما مكن السكان على التعامل عسكرياً مع التهديد العربي الإسلامي بأشكال أكثر فعالية.

من المؤكد أنه ليس بالإمكان في إطار هذا المقال تقديم تلخيص وافٍ للإشكاليات المطولة والمعقدة والأدلة المتعلقة بها مع النظريات المختلفة حول مدى تأثير العرب المسلمين على جنوب أوروبا. مع ذلك، لا بد من ملاحظة أن أكثر هذه المؤثرات تداولاً

إضافة إلى ذلك فإن Provence. تتناول اللغة والأساليب الأدبية والعادات في بروفانس تحليل ومناقشة مثل هذه الأسباب المتعددة، وتأثيراتها(مثل دور التطوير التقني في الفروسية، وعلاقات التبادل التجاري، ومصادرة الأراضي وسياسات إعادة توزيعها، ولعل مصدرها) "Fief" وحتى المصادر الأساسية لعبارة الأرض المقطعة والمقطعة (فيء) من شأنه أن يحافظ على استمرار الاختلاف حول ما بعد الوجود العربي (الإسلامي)(23).

وفي الوقت نفسه، يبدو مستبعداً جداً أن تكون هناك حاجة إلى التمييز بين الأحداث التي وقعت في الأوقات المختلفة التي أشرنا إليها. وبكلام آخر فإن حجب معارف أساسية جديدة(أثرية وأدبية) لا يسمح لنا بأن نفعل لك

وفي الحالة السويسرية، فإن الدليل هو أشد ثباتاً وأكثر تنوعاً. فعلى سبيل المثال فإن العديد من البحاثة سجلوا ملاحظات حول المواصفات غير العادية لسكان وادي الساس Rhone في الرون Visp وهو واد منعزل نسبياً يمتد جنوباً من مدينة فيسب Saas والذي يؤدي إلى Monte Moro وينتهي في ممر نادر الاستخدام وهو ممرّ مونت مورو وقد سجل أحد هؤلاء Macugnaga في إيطاليا(عند مدينة ماكوغناغا Anza وادي أنزا البحاثة ملاحظات حول "السمات السامية" التي وجدها في هذا الوادي وفي الوديان المجاورة له. ولاحظ باحث آخر كيف أن السكان بصورة عامة ذكروه بالنماذج التي وجدت في جنوب إيطاليا أو بين الإفريقيين الشماليين(أي عرب شمال إفريقيا). جدر الإشارة هنا إلى أن هذه الاختلافات المتجمعة في السمات الجسدية والتي كثيراً ما كانت موضع حديث في السابق، لا تزال واضحة حتى اليوم. أكثر من ذلك، هناك باحث واحد على الأقل لاحظ والتي تتميز بنكهتها Rhone نسبة عالية من الأسماء المتداولة في جنوب وادي الرون (الشرق أوسطية أو الشمال افريقية)(24).

ولعل من أهم العادات التي لوحظت في الأربعينيات من القرن العشرين والتي لا تزال مستمرة حتى اليوم ما يأتي:

1- تربية الخنازير على الرغم من أن لحمها Saas استمرار رفض سكان وادي الساس - 1 Rhone هو مصدر تقليدي للحوم في المناطق الأخرى من وادي الرون.

2- الطريقة الخاصة لذبح المواشي(من أجل تناول لحومها)، وكما لاحظ أحد البحاثة - 2 فإن هذه الطريقة لم تسجل إلا لدى بربر(أمازيغ) شمال إفريقيا.

3- إضافة إلى وجود Saas، قلة وجود الغابات والمساحات المشجرة في وادي الساس - 3 أدلة أثرية تثبت اعتماد نفس الأسلوب في شواطئ شمال أفريقيا.

وفي الواقع فإن عدداً من الإختصاصيين في موضوع غزوات العرب المسلمين أشار إلى وجود عدد من المستوطنات في المنطقة وإلى الزواج المختلط مع السكان المحليين، سواء Fraxinatum في فرنسا أو سويسرا وذلك قبل إزالة قاعدتهم نفسها فراكسيناتوم.

وإضافة إلى الأدلة غير المباشرة هذه، فإن من الصعب إثبات هذه الحجة، الأمر الذي يتطلب المزيد من البحث. وربما كان للزواج المختلط وللمستوطنات العديدة التي أقامها العرب المسلمون دور في استمرار "فراكسيناتوم"، وفي استمرار هيمنتها على بعض المناطق من دون الحاجة إلى استقدام مهاجرين جدد من إسبانيا.

وبما أنه لا يوجد بحث منهجي (حول أصول الأجناس والخلايا الجينية والدم) بين السكان المحليين في هذه الوديان والتي يمكن أن تساعد للإجابة على السؤال حول أصولهم، فأنا مضطرون في الوقت الحاضر إلى توصل التخمين لتوضيح ما إذا كانت توجد بالفعل نماذج غير محلية أم لا.

## المواصفات السياسية

بما أن السجلات الأوروبية المعاصرة حول غزوات العرب المسلمين معنية بدرجة أساسية بإبراز الأدلة على تهمة "الإنسانية وعلى فظاظة الغزاة المدمرة"، فإنه من الصعوبة بمكان التوصل إلى تقدير دقيق لمؤثرات تلك الغزوات على المناطق الألبية، وبصورة أقل على انعكاساتها البعيدة المدى. ثم أنه على الرغم من وجود سجلات وكتابات للمؤرخين العرب تغطي هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي، فإنه لا توجد أي إشارة محددة إلى التطورات المتعلقة بمستوطنة فراكسيناتوم أو إلى الضوابط الإدارية التي مارسها العرب المسلمون في المناطق الألبية.

أن الدليل الوحيد الذي يشير إلى الوجود العربي هو أن العرب استخدموا عبارة جبل اسماً لجبل الألب. وهو اسم مصدره الاسم اللاتيني الذي كان Jabul Monjaw مونجو أي (جبل جوبيتير) و كان هذا، Mons Jovis مستخدماً في ذلك الوقت، وهو مون جوفيز والتي لم تحصل St. Bernard الاسم قد خصص تحديداً لتسمية منطقة ممر سان برنارد (على اسمها هذا -الحالي- إلا بعد العمليات التي قام بها (القديس) برنارد نفسه (25).

مع ذلك هناك بعض الأدلة من المصادر المعاصرة تشير إلى أن العرب المسلمين لم يكونوا قساة القلوب ولم يكونوا غير إنسانيين كما جرى تصويرهم (غالباً لأسباب سياسية محلية). فعلى سبيل المثال هناك واقعة تبدو ثابتة تماماً جرت مع مسافر في مدينة فيرسيلي في شمال إيطاليا، فقد وصف العرب المسلمين بأنهم يعيشون مع وبين السكان Verscelli المحليين بطريقة أوحى إليه بأنهم مستقرون تماماً. "فالعرب المسلمون لم يكونوا يحملون سلاحاً ولم يكونوا مزعجين للسكان المحليين. وكانوا يشرفون على إدارة المدينة وضواحيها". "بيد خفيفة".

ويبدو أن العرب المسلمين لم يتحولوا إلى جمع الضرائب وإلى المصادرة إلا بعد أن تبليت مستوطنة فراكسيناتوم بأنها لن تلقى بعد الآن الدعم من إسبانيا. وقد أشار إلى ذلك بالتفصيل عدد من الكتاب المعاصرين، ولأن الأمر تناول رجلاً متديناً ومعروفاً في ذلك ففي عام 972م كان Cluny من دير كلوني St. Maiolus الوقت، هو القديس مايولوس St. القديس مايولوس عائداً إلى الدير بعد رحلة إلى روما. فاستخدم طريق سان برنارد

لاحتياز الألب. وبعد أن نزل من الجهة الشمالية إلى مدن الوادي الواقعة على Bernard الطريق الصعودي، اختطف مسلحون مجموعته. وطالب الخاطفون وكانوا من المسلمين العرب فدية مالية مقابل إطلاق سراحهم. دفع الدير الفدية وقدرها ألف جنيه من الفضة (بعد أن اضطر إلى بيع معظم موجوداته) وقد حددت قيمة الفدية بحيث توفر لكل عنصر من الخاطفين مبلغ جنيه فضي واحد.

كان لهذا الحادث أهمية خاصة لسببين

1 - أنه يوفر لنا الدليل الوحيد على عدد المسلمين العرب الذين كانوا متواجدين في المناطق الألبية في ذلك الوقت. ويتمتع هذا العدد بشيء من الصدقية من خلال حقيقة أن أحداً لم يحاول بشكل جدي أن يقوم بعمل مسلح مضاد للمسلمين العرب، أي أن عددهم كان كبيراً لدرجة أن أي عمل بديل عن دفع الخوة لم يكن ممكناً.

2 - أن هذا الحادث كان آخر الأحداث الكبيرة التي قام به المسلمون العرب في منطقة الممر. وبكلام آخر، فإنه يقدم لنا بعض التأكيد إلى نوايا العرب المسلمين بالانسحاب الطوعي إلى قاعدتهم في فراكيناتوم. ويبدو أن هذه القوة بالذات كانت في طريقها إلى فراكيناتوم عندما وجدت فرصة سانحة للقيام بعملية الجباية الأخيرة.

وبالمحصلة، يبدو أنه في الحالات التي تمكّن فيها العرب المسلمون من أنفسهم، وحيث قرروا التواجد الدائم، اعتمدوا نظاماً للإدارة اقل وطأة من الأنظمة الاعتباطية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ومن جهة ثانية، وإلى أن يتم إقرار بعض الإجراءات السياسية والإدارية (مثلاً على ذلك وبعد أن قررت قرطبة وقف دعمها لعملياتهم، (Hugo الاتفاق مع الملك هيغو كانوا (العرب المسلمون) يعتمدون بالفعل وبدرجة كبيرة على الامكانيات التقليدية التي يعتمد عليها عادة أي جيش غازٍ، فيأخذون ما هم في حاجة إليه، عندما يكونون في حاجة.. مع " قليل من الإضافة" لمصلحة المشتركين.

## استنتاجات

إن وقائع الأحداث والدلائل المتوفرة، تطرح عدداً من الأسئلة:

العرب المسلمين) فضلت في الاستخدام على Saracen أولاً: يلاحظ القارئ أن عبارة أي عبارة معاصرة أخرى (إلا في حالات محدودة جداً). وقد جرى ذلك بصورة رئيسية لأنه ليس واضحاً تماماً مع من نتعامل. فالأدبيات الأوروبية لم تستخدم كلمة "عرب". للدلالة على الغزاة. وفي حالات قليلة جداً Saracen واقتصرت على استخدام كلمة سراسن والأمر Moors. (أو كلمة المور (المغاربة Ismaelites استخدمت كلمة الإسماعيليين المثير في ذلك هو أن الوقائع المعاصرة تعترف وتميز بشكل واضح الأصل الاسباني للمهاجمين. فالقسم الأكبر منهم أن لم يكونوا جميعهم، جاءوا من إسبانيا، وتلقوا تعليماتهم من الأمير / الخليفة في قرطبة. مع ذلك وفي الوقت نفسه، فإن بعض السجلات تشير إليهم



حقاً؟ Saracen بعبارة "الأفارقة". فمن كان السراسن

يمكننا الجواب بأنهم ربما كانوا من المسلمين البربر وليس من العرب. وقد تداول الباحثون المعاصرون مؤخراً كثيراً حول هذه الامكانية، وهناك قدر من المنطق لقبول هذا (التفسير 26).

وإضافة إلى المؤشرات التي ذكرناها أعلاه، يجب أن نذكر أن الأمراء/ الخلفاء العرب في إسبانيا كانوا يستخدمون القادمين الجدد من البربر في خطوط المواجهة الأمامية للتصدي ولذلك فإنه من المعقول جداً أنهم كانوا Pyrenees للحملات الأوروبية عبر جبال البرينيه يشجعون البربر على القيام بـ"الحملات الصيفية" لإبعاد أي شعور لديهم بالغبن نتيجة عدم مساواتهم مع عرب إسبانيا.

وتبعاً لذلك، فإنه من المنطقي أن نضيف توافق الكتاب المعاصرين على تقدير المهارات العسكرية للمسلمين العرب في المناطق الجبلية، وإلى تفضيل هؤلاء للمناطق الجبلية بشكل واضح.

ومع أن أي قوة صغيرة مسلحة في أرض معادية تفضل التموضع في مواقع دفاعية في سفوح التلال والجبال، على مواقع لا-يمكن الدفاع عنها في السهول والأودية، فإن هذه التوصيفات تعيد إلى الأذهان عدم الاكتراث العربي التقليدي لاختراق المناطق الجبلية. وللدلالة على ذلك، فإن معظم المناطق الجبلية في العالم العربي لم تعرب تماماً ولكنها تأسلت جميعها. وأفضل الامثلة على ذلك هي جبال العراق والمغرب والجزائر ولبنان وسوريا.

وثمة سؤال آخر يفرض نفسه في هذا السياق، فلم يشر أي مصدر معاصر إلى وجود صعوبات لغوية بين العرب المسلمين والسكان المحليين. وبما أن المهاجرين تولوا إدارة الممرات الرئيسية لمدة جيل تقريباً، فإن ذلك قد لا يكون امراً غير طبيعي، على الأقل بالنسبة لهذه المناطق. مع ذلك وبالرغم من أن كل السجلات المثيرة للاهتمام تتعلق بالغزوات اللاحقة، فإن هذا الموضوع لم يطرح على الإطلاق، لماذا؟

إن الجواب على هذا السؤال تحديداً تتضمنه الحقيقة التالية: وهي أن مسيحيين ويهوداً من إسبانيا شاركوا في "الصيفية". ورغم أن لدينا بعض الدلائل على أن اللاتينية وربما لغات محلية أخرى كانت تدرّس في إسبانيا العربية، فإنه لا يبدو أن المشاركين في "الصيفية" إحتاجوا إلى أو كانوا بحاجة إلى خدمات لغوية. مع ذلك فإن النجاح الذي لا ينافس لعدد من أدى إلى جذب "جنود الثروة" Fraxinetum "الصيفيات" وخاصة لصيفية فراكسيناتوم الذين كانوا متواجدين في إرجاء المنطقة. فنحن على صواب عندما نعتقد أن العناصر غير العربية وغير البربرية التي شاركت في الصيفيات من أجل مكاسب شخصية تصرفت بشكل عفوي كمتترجمين ووسطاء بين العناصر الإسلامية والسكان المحليين في الحالات (التي كان التواصل فيها ضرورياً 27).

إضافة إلى ذلك ثمة اعتقاد بأنه في المناطق التي تواجد فيها المسلمون العرب بكثافة، كانت هناك أعداد كبيرة من الناس الذين يعرفون العربية. وربما يكونون قد اكتسبوا نتيجة لتعايشهم لمدة قرنين مع العرب.

لا بد من بذل جهد كبير لمعرفة ما إذا كان الخليفة في قرطبة، وأهم من ذلك، ما إذا كانت وجهة النظر الإسلامية العامة حول الإجراءات الإدارية في الأراضي التي أصبحت بصورة مؤقتة جزءاً من دار الإسلام، قد تأثرت بوجودها لمدة قرن كامل بأوضاع المناطق الألبية أو إذا كانت قد فشلت في تقديم أي دليل مادي على مثل هذا التأثير.

أن الافتقار إلى أي وصف تفصيلي أو تحليلي لهذه الأحداث من مصادر المؤرخين المسلمين العرب لا- يترك لنا أي مجال آخر سوى الاعتماد على التخمين بأن الاحتلال أو الاجتياح العسكري لشعوب أجنبية ليس معنياً بوضع إجراءات إدارية منظمة. ولكن عندما يتعلق الأمر بإدارة طويلة المدى للأراضي الجديدة تبرز مثل هذه الإجراءات المنظمة. فنحن لا نملك أي دليل على أن العرب المسلمين أقاموا سلطة إدارية حكومية باستثناء عملية جمع الضرائب والمكوس.

كما أننا لا- نملك أي مؤشرات على وجود نظام قضائي أو أي شكل من أشكال متابعة الخلافات بين المسلمين العرب والسكان الأصليين.

وبما أن الخليفة في قرطبة لم يعط أي إشارة إلى وجوب استتباع هذه المناطق بصورة دائمة بأرض الإسلام، فيبدو أنه لم يكن هناك حافز للقيام بالعمليات التنظيمية والبنوية الحكومية على النحو الذي عرفناه في المناطق الأخرى التي كانت تحت الحكم الإسلامي.

وباختصار، إذن، فعلى الرغم من أن المناطق الألبية في فرنسا وشمال إيطاليا وجنوب سويسرا قد تأثرت بشكل واضح (حتى أواخر القرن العشرين) بخضوعها المؤقت للحكام المسلمين، فإن العالم الإسلامي لم يعتبر أبداً تلك المغامرة على أنها أكثر من "غزوة" (صيفية" ناجحة، في قلب أوروبا، في الوقت الذي كان مشغولاً بأمر أكثر أهمية (28).

\*\*\*\*\*

### :الهوامش

كاتب وباحث من لبنان (\*)

- Liudprand Antapodosis, F.A. wright (ص 33-34) ترجمة (لندن 1930).

المرجع السابق -!

للمزيد من التفاصيل حول هذه الأديرة Le Royaume de Bourgogne: راجع -!

l- (ohn E. Tyler, The Alpine Passes (Oxford - 1930).

;- Liudprand. صفحة 186-187.

نظراً للشهرة الواسعة التي كان يتمتع بها مايولوس فإن الحادث الذي تعرض له على يد المسلمين العرب وفر لنا أوسع تفصيل مسجل عن وقائع الاصطدامات التي جرت في الممرات الألبية بينهم وبين السكان المحليين.

7-

3. de Rey, Les Invasions des Sarrasins en Provence Marseille: Typographie Marius Olive, 1878, p.p. 192-193

3- انظر: فيليب حتى: تاريخ العرب، (الطبعة السادسة 1978) ص 493 و 601

3- S. Ronart, Concise Encyclopedia of Arabic Civilization (N.Y. Proeger, 1966) P.P. 339-340.

0- أن الدور الذي لعبه اليهود كوسطاء أو متعاونين أو شركاء مع المسلمين العرب يحتاج إلى المزيد من البحث، ذلك أنه كان هناك اعتقاد واسع أن اليهود لعبوا بالفعل دور "الطابور الثالث" لمصلحة المسلمين. وقد اتهموا في ظروف عديدة بأنهم وجهوا الطعنات إلى الدفاعات المسيحية ضد المسلمين. وبسبب هذا الاعتقاد فرض شارلمان وغيره من الحكام الفرنك قيوداً معينة على اليهود في القرنين الثامن والتاسع.

1- War and Peace in the Law of Islam - Baltimore. راجع ماجد خدوري (1955).

2- Some Geographical and Political information on western Europe in the Medieval Arabic Sources " The Muslim World" P.P. 304-322. راجع علاء الدين سامرائي

3- Jean de Ponpardin يمكن الاطلاع على تفاصيل البعثة التي ترأسها الراهب جان دي غورز إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث حوالي العام 956م ، في صفحة 94-96. ويبدو من تلك الوقائع أن البعثة لم تترك أي أثر يذكر على سلوك الخليفة، علماً بأنه لا يوجد تسجيل لها في المراجع العربية.

4- إلى وجود عدد كبير Reinaud, de key, Keller أشار العديد من المؤرخين أمثال من الأبراج والتحصينات الإسلامية علماً بأن البعض منهم يعزو هذه الأبراج إلى الرومان!

5- إن أكثر المخطوطات شهرة هو المخطوط الذي وجد في كنيسة صغيرة (بورج سان بيار - مونجو) التي تقع على الطريق إلى ممر سان برنارد وهي مكتوبة بين عامي 1019 و 1038، وقد انتزعت من موقعها وأعيد تركيبها في عملية بناء جديدة جرت في عام 1739.

6- Jean Lacam, Les Sarrasins dans le haut moyen-age Francais,

Paris 1965

- 7- أول من أشار إلى الأسماء العربية في عدد من Engelhart يعتبر المؤرخ الألماني 1840م المواقع الألبية في كتاب له صدر بالألمانية في بازل عام 1840م.
- 8- انظر: فيليب حتى: تاريخ العرب، ص 605 حيث يربط الاسم الذي أطلق على العرب - Marron بسبب لون بشرتهم السمراء التي تشبه لون الكستناء Maur المسلمين.
- 9- لا يزال الجدل قائماً في سويسرا حول العلاقة بين هذه الأسماء وأصولها العربية. مع ذلك يبدو أن القبول بهذه الأصول العربية أصبح الآن أكثر مما كان عليه في السابق، ذلك أنه لا يوجد لهذه الكلمات أي أصل في اللغات اللاتينية أو الألمانية أو السلتيّة.
- 10- أن التقاليد المحلية المستمرة حتى اليوم تربط أصول هذه العائلة بالمسلمين العرب - الذين استوطنوا في هذه المنطقة.
- 11- Peter J. Ruppen يؤكد أحد المؤرخين السويسريين المرموقين بيتر جوزف روبن في القرن التاسع عشر أن بعض السكان المحليين هم من نسل العرب المسلمين، كما يعزو إليهم فضل تحويل الوادي إلى حقول صالحة للزراعة.
- 12- Camargue إلى أبعد من ذلك فيؤكد أن الخيول المشهورة Reinaud يذهب راينود - هي من نسل الخيول العربية.
- 13- Henry Pierenne (mohamed and Chaslame, N.Y. 1939) انظر: The Legacy of Islam N.Y. 1931, P. 562 وفيليب حتى
- 14- في سويسرا تؤكد Sud Wallis أن مراجعة دليل الهاتف السويسري في كانتون استمرار الأسماء العربية الأصل حتى اليوم. كذلك فإن أحد الضباط السويسريين أشار في تقرير له أثناء حملة التجنيد التي قام بها الجيش خلال الحرب العالمية الثانية إلى وجود أسماء غريبة تشبه الأسماء البربرية مثل عائلة الحسبورة Es-Borra.
- 15- على الممر الألبى تقديراً لدوره في تحويل St. Bernard أطلق اسم القديس برنارد - بقية "العناصر الوثنية" (من سكان البلاد الأصليين) إلى المسيحية في القرن الحادي عشر.
- 16- هناك أسماء بربرية الأصل لبعض المواقع، ولكن من الصعب تأكيد ذلك لعدم وجود قاموس لغوي للبربرية من شأنه أن يسهل مثل هذا البحث العلمي.
- 17- أن هناك العديد من الحملات العربية في قلب أوروبا Reinaud يضيف راينود - Reinaud, المسيحية التي واجهها المسيحيون مما أدى إلى انتشار محدود للغة العربية (P.P. 282-284)

28- من أجل ذلك يشكك الأوروبيون في صدقية وصف المستوطنة العربية - الإسلامية

بأنها دولة إسلامية مغروسة في قلب أوروبا المسيحية، كما ورد في الموسوعة الإسلامية.